

الفصل الرابع
المحاورة الرابعة

**الاحتلال العثماني الاول للعراق
(1514-1638)**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا

بما كنا لنجده الا ان هدانا الله لعلنا نكون

مفلحين

1. التوسع العثماني باتجاه العراق (1514-1534):

1. بدايات الصراع الصفوي العثماني

لقد تطورت العلاقات الصفوية-العثمانية مع مرور الزمن واتخذت شكلا تصاعديا، ووصلت الى القمة في معركة جالديران. ومن المعروف انه ساد العلاقة بين الطرفين هدوء نسبي بعد القضاء على دولة الاق قوينلو من قبل اسماعيل الصفوي، ذلك ان السلطان بايزيد الثاني الذي خلف اياه محمد الفاتح كان بطبعه ميالا الى المسالمة، فلم يفكر بإنجاز فتوحات اخرى لا في الجبهة الشرقية ولا في الجبهة الغربية، كما لم يكن على استعداد لمساعدة حاكم الاق قوينلو في حربه ضد الشاه اسماعيل الصفوي عدوهما المشترك، لكنه لكان حذرا على أي حال، فقد طلب من رستم بيك مكري كرد حاكم ديار بكر ان يوافيه بتقرير عن حقيقة نوايا الصفويين بالتوسع باتجاه الغرب، واستعدادات الشاه اسماعيل الصفوي العسكرية ومدى قوته بالمقارنة مع قوة سلطان الاق قوينلو، لكن هذا الطلب جاء متأخرا، فقد هزم الشاه سلطان الاق قوينلو، وهو على وشك اجراء مفاوضات مع المماليك في مصر بهدف التعاون ضد العثمانيين، وارسال حملة عسكرية الى ديار بكر ومرعش. ونتيجة لذلك بدأت العلاقات بين الدولتين الصفوية والعثمانية تسير نحو الاسوأ بعد القضاء على الاق قوينلو، بفعل تنافسهما على اقتسام ممتلكات هؤلاء التي تقع على حدودهما المشتركة، فكان من الطبيعي ان يتصاعد الخلاف السياسي بينهما، على ان هذا التنافس استمر مستترا طيلة عهد السلطان بايزيد الثاني بفعل الاضطرابات في بلاد العثمانيين الناتجة عن ثورات (القرلباش) والتنافس الاسري على العرش، ويبدو ذلك من خلال الرسائل المتبادلة بين العاهلين. وعندما استولى الشاه على العراق وضمه الى املاك الصفويين، ارسل اليه السلطان

العثماني رسولا هو محمد جاوش بالابان وحمله الهدايا الكثيرة ورسالة تهنئة غير متوقعة بفتح فارس واحتلال العراق، ويبدو انه كان يهدف الى تدعيم العلاقة الجيدة مع الشاه، من دون ان يدرك مدى ما يشكله من خطر على دولته. وعندما هاجم الشاه اسماعيل مرعش والبستان في حربه ضد علاء الدولة دلقادر (ذو القدر)، واضطر ان يعبر الحدود العثمانية عند قيصرية، امر جنوده بعدم التعرض لأرواح واموال الرعايا العثمانيين، واعتذر للسلطان عن اختراق الاراضي العثمانية، واعلمه بانه لا يفكر مطلقا في تعكير صفو العلاقة بينهما. ولكن في الوقت الذي كان فيه العاهلان يتبادلان الرسائل الودية، كان الامير سليم بن بايزيد الثاني يقاتل اتباع الصفويين في الاراضي العثمانية، ويتعقبهم خارج حدودها، ووصل في احدى حملاته ارزنجان واسر ابراهيم، شقيق الشاه اسماعيل، فارسل هذا رسالة احتجاج الى السلطان العثماني مع التذكير بالصدقة الصفوية-العثمانية، ولكن السلطان بايزيد الثاني لم يحسن استقبال السفير الصفوي، وعامل الشاه اسماعيل السفير العثماني الذي حمل اليه الرد بالمثل فأهانته بشدة، ومنذ تلك اللحظة تبدلت العلاقات الودية بين الدولتين الى مواجهة سافرة. ومما ساعد على هذا التحول عاملان اولهما: بروز الامير سليم كخليفة محتمل لوالده من واقع مساندة الانكشارية له وتفضيلهم اياه على اخويه احمد وقورقود. وثانيهما: نشاطات الشاه اسماعيل الذي يعمل على زيادة نفوذه في الاناضول، وقد نجح في كسب عشائر القزلباش الذين قاموا بأرسال الهدايا والنذور اليه. وقد بقيت التحركات الصفوية السياسية نشيطة في الاوساط التركمانية-الاناضولية التي وجدت من الدعاية الصفوية صدى بين العشائر التركمانية التي كانت متدمرة من التدابير المالية والادارة العثمانية بل وهيات السبيل لحدوث اضطرابات كبيرة في الاناضول. وازدادت العلاقات بين الدولتين سوءا في عام 1511 اثر الثورة التي فجرها شاه قولي بن حسن خليفة في ولاية تكة في الاناضول، أي قبل مجيء سليم الاول للحكم بأشهر، وهو رئيس عشيرة تكلو القزلباشية، الذي نجح في استغلال سخط العشائر التركمانية، ونجح في كسب العديد من المؤيدين له في الاناضول. وقد التف حوله عدد كبير منهم بوصفه ممثلا للشاه اسماعيل. وكان شاه قولي

قد ارسال دعائه الى قلب الاناضول مستغلاً، الانقسامات الاسرية في البيت العثماني الحاكم والنزاع الذي نشب بين ابناء بايزيد الثاني. لذا عمل السلطان بايزيد في بادئ الامر الذي ارتاب من نوايا الشاه المعادية بإرسال جيشا الى مناطق الحدود لرصد الموقف، واقدام في الوقت نفسه على تهجير العديد من السكان من مؤيدي الشاه الى المورة، ثم اغلق الحدود بين الدولتين بهدف عزل الشاه عن قاعدته في الاناضول الشرقي، الا ان هذا الاجراء لم يكن فعالا لان اتباع الشاه استفادوا من السماح للقوافل التجارية بالمرور عبر الاناضول فتغلغلوا في ربوعه. وقد تلقى الثائرون امدادات من القزلباش المنتشرين في مختلف انحاء الدولة العثمانية، فكانت النتيجة ان وقع معظم وسط وجنوب شرقي الاناضول بيد شاه قولي، فقد تمكن الثوار من قتل القائد العثماني الذي كلفه السلطان ياخماد ثورتهم، وعندما اشتدت قوتهم هاجموا منطقة قرمان وانتصروا على حاكمها قرة كوز باشا، واجتاحوا ولاية سيواس، مما دفع السلطان العثماني الى ارسال الصدر الاعظم خادم علي باشا على راس جيش كبير قوامه 8000 مقاتل، للقضاء على الثورة، فهزم الصفويين، وقتل شاه قولي وانهارت بذلك قوته وحركته السياسية وفرت بقايا القزلباش الى الشاه في ايران. وقد اكتفى السلطان العثماني الذي كان يعاني آنذاك من تدهور في صحته، ومن تنازع اسري على العرش بين اولاده الثلاثة احمد وقورقود وسليم، بان ارسل الى الشاه اسماعيل يؤنبه على تشجيعه لاتباعه في الاراضي العثمانية وتأييده لهم في انتفاضتهم ضد السلطة.

2. وصول السلطان سليم الاول لعرش السلطنة العثمانية:

ادى تفكك الاناضول المرتبط بالعجز الواضح للسلطان بايزيد الثاني الى تفجر ازمة سياسية، والى تنافس ابناء السلطان الثلاثة على العرش ما كان له اثر سيء على قدرات الدولة. وكان سليم الاكثر قلقا على مستقبل السلطنة، وبغضا للشاه اسماعيل، فطلب من والده ان يعينه حاكما على احدى ولايات اوروبا، فرفض طلبه، عند ذلك شق عصا الطاعة وتقدم على رأس جيش جرار الى بلاد الروملي، وظهر امام مدينة أدرنه في عام 1511م

واجبر والده على تلبية طلبه، فعينه السلطان واليا على سمندرية وفيدين والوجه حصار ونيقوبوليس، فوطد اقدامه فيها بهدف انشاء دولة جديدة له في الشمال على ما يبدو. وقد استغل سليم التمرد الذي حصل في تكة وغياب والده عن العاصمة فزحف من مقر اقامته الى أدرنه واعلن نفسه سلطانا على العثمانيين، وكان ذلك اكثر ما يمكن السكوت عليه، فارسل السلطان بايزيد الثاني اليه جيشا هزمه واجبره على الارتداد الى بلاد القرم. وبدا لأخيه احمد في هذا الوقت، ان باستطاعته التوجه الى العاصمة لإعلان نفسه سلطانا، لكن الانكشارية، الذين اتهموه بعدم الكفاءة، فتمردوا عليه وارغموه على الانسحاب. وبدأت الاحداث تسير لصالح الشاه اسماعيل الذي دبر في مطلع عام 1512 تمردا اخر قاده نور علي خليفة في توقات واماسيا، ويعد التمرد الوحيد ذا الصلة الوثيقة بالشاه الذي اداره بنفسه، مما اثار غضب الانكشارية الذين ازعجهم خسارة سليم وانتصار الشاه، فالحوا على السلطان ان يعفو عنه، فاستجاب لطلبهم واعاد ابنه الى سمندرية. ولكن حدث اثناء انتقاله ان ساندته الانكشارية الذين وضعوا ثقتهم به، فدخلوا العاصمة وضغطوا على السلطان للتنازل له عن العرش، فوافق مرغما وذلك في 25 نيسان 1512.

3. الصراع الصفوي-العثماني في عهد السلطان سليم الاول: عوامل الصراع.

-العامل السياسي-

شكل وجود الدولة الصفوية عائقا سياسيا امام العثمانيين، فمن المعروف ان الاناضول التركي يعد امتدادا طبيعيا للأراضي الايرانية وارضيا اسيا الوسطى، بفعل ان العنصر التركي ذا الاصول الاسيوية، قد سيطر في وقت من الاوقات على مجمل اراضي اسيا الوسطى حتى البحر المتوسط، واقام دولة واسعة في هذه المناطق. وقد ظل السلاجقة ومن بعدهم العثمانيون، يعتمدون على المهاجرين التركمان القادمين من الشرق، في بناء المجتمع التركي ونموه في الاناضول أو في البلقان. وقد شكل قيام الدولة الصفوية في ايران حاجزا

سياسيا قطع الاتصال بين العثمانيين وبين اصولهم الشرقية، مما كان دافعا لهم لهدم هذا الحاجز واعادة الاتصال مع الشرق. كما ان السلطان سليم ادرك ان الشاه اسماعيل يشكل عاملا خطرا من عوامل تفكك الاناضول العثماني، واثبتت احداث التمرد التي قامت في اواخر عهد السلطان بايزيد الثاني ذلك، وان حل المشكلة الاناضولية يمر عبر القضاء على الدولة الصفوية. يضاف الى ذلك ان المواجهة الصفوية-العثمانية يمكن النظر اليها على ضوء العلاقة المتعارضة لكل من الطرفين مع المماليك والاوزبك وحكام الهند المغول من جانب، ومع اوروبا من جانب اخر من واقع الصراع على مناطق اسيا الوسطى حتى البحر المتوسط. وشكل نجاح الشاه اسماعيل في تأسيس الدولة الصفوية خطرا على العثمانيين والمماليك الامر الذي زعزع الاستقرار في هذه المنطقة واستغله الصفويون لتنفيذ اهدافهم. وكان واقع المواجهة العثمانية-الصفوية مزدوجا، فهو من جهة رد فعل عثماني على طموحات الشاه اسماعيل السياسية، ومن جهة اخرى فهو مواجهة مذهبية. ويبدو ان العلاقة بين العثمانيين والصفويين كان يسودها الفتور في هذه الفترة بالذات اي في بداية تولي سليم الاول السلطنة، اذ انه بعد اعتلائه العرش وصله سفراء البندقية والمجر ومصر وسورية لتقديم التهاني له بهذه المناسبة ولم يصله سفير من ايران وادرك الجميع في هذا الوقت بالذات ان الحرب ستقع بين سليم وخصمه الشاه اسماعيل. فضلا عن ذلك كانت تحركات الشاه في الوقت الذي اعتلى فيه سليم العرش العثماني، قد طالت المناطق الشرقية والجنوبية المجاورة لدولته في اقليم الجزيرة، فاخذ ينظر بعين الريبة لأنها تستهدف السيطرة على المواقع الاستراتيجية، ولاسيما بعد ان تهاوت المناطق التي تربط ايران بالاناضول عبر العراق والتي يسكنها الاكراد بيد القزلباش. ومن اجل ان يتصدى السلطان لطموحات الشاه كان عليه ان يثبت اقدامه في الحكم، وان يتفاهم مع الدول الاوروبية الفاعلة لتهدئة الجبهة الغربية، وكانت النزاعات الاسرية لا تزال ناشطة وكذلك حركات التمرد، وكان الشاه قد التزم بشكل علني جانب الامير العثماني احمد الذي ثار على السلطان سليم فيما بعد، كما جعل قصره ملجأ للأمرء العثمانيين المعارضين لسلطنة سليم. ولكن السلطان العثماني

تمكن من التخلص من اخويه احمد وقورقود اللذين نافساه على السلطة، واخذ حركات التمرد المدعومة من الشاه، لذا قام بمذبحة شنيعة في شرقي الاناضول وراح ضحيتها اربعون ألف من القزلباش دون ان يراعي السن او الجنس وبهذا قضى على اي محاولة للتمرد قد تحدث في المستقبل. ثم التفت السلطان سليم بعد ذلك الى تهدة الجبهة الغربية، فعقد معاهدات سلام مع البندقية والمجر وروسيا، فاتحا بذلك عهدا جديدا من العلاقات السلمية مع اوروبا، مما شكل انتصارا سياسيا له. وحتى يشتت قوى الشاه، كتب الى عبيد الله خان الاوزبك في عام 1514 يعلمه بنوايا في التحرك الى غربي ايران، ويطلب منه ان يهاجم خراسان، في الوقت نفسه للانتقام لمقتل عمه محمد شيباني خان على يد الشاه اسماعيل الصفوي. وكان هدف سليم من ذلك ان يجعل ايران بين شقي الرحي بهجومه من الغرب وهجوم خان الاوزبك من الشرق، فيضطر الشاه الى القتال على جبهتين. وقد وافق خان الاوزبك على طلب سليم الاول، فهاجم سمرقند وانتصر على القوات الصفوية. وازاء ذلك كان من الطبيعي ان يرد الشاه اسماعيل على تدابير السلطان المعادية، فشرع في ايواء الفارين من الاتراك الى ايران ومنحهم المساكن، لاستغلالهم بعد ذلك في اشعال التمرد في الاناضول، كما سعى للتحالف مع بعض الدول الاوروبية لتكوين جبهة موحدة ضد العثمانيين، ولم يكتف بهذا بل وسعى الى اقامة تحالف مع الخصم الثاني للعثمانيين وهو السلطان المملوكي في مصر، فسارع الى ارسال وفد ضخم اليه لإبلاغه عن هذه الحرب المتوقعة ودعوته للتحالف معه ضد السلطان سليم، كما سعى للتحالف مع علاء الدولة حاكم امارة ذي القدر في اسيا الصغرى. ويبدو ان السلطان الذي لم يكن غافلا عن تحركات الشاه اسماعيل كان يسعى لعزل الشاه اسماعيل دولياً وافشال اي تحالف قد يقيمه مع الدول المجاورة فأرسل هو الاخر وفداً الى المماليك دعاهم الى التحالف. وبعد مباحثات طويلة اثرت الدولة المملوكية التزام الحياد، وبغية مواجهة الموقف المستجد جراء التصعيد الخطير بين الدولتين العثمانية والصفوية رأى المماليك انه من المناسب ارسال قوات الى اطراف حلب لمرابطتها هناك.

- العامل الاقتصادي:

لقد سعى السلطان سليم الى الوصول للهند وتحقيق سيطرة عثمانية على طرق التجارة الشمالية بفعل احتكار البرتغاليين تجارة التوابل، وسيطرتهم على الطرق التجارية الجنوبية مع الهند. هذا وقد شهد بداية عهده تطورا في الحرف والاعمال التقنية السائدة في البلاد آنذاك، مما جعل متطلبات الدولة تزداد مع تطور هذه الاعمال. ثم استمرار زيادة ارتفاع اسعار الحبوب في اوروبا في ذلك الوقت، وهو ما يشكل اساسا لازدهار تصدير الحبوب من الاناضول، وزيادة عدد السكان في اسيا الصغرى، مما يحملنا على الاستنتاج بانه رافقه توسع في الانتاج الزراعي. يضاف الى ذلك الاستهلاك المتزايد في اوروبا للمنتوجات الشرقية ولاسيما التوابل والحريز، مما دفع السلطان الى السيطرة على الطرق التجارية الشمالية واحتكار التجارة بين الشرق والغرب. فضلا عن ذلك رغبة السلطان سليم من منع الصفويين من الاستفادة من المواد الخام الخاصة بصنع الاسلحة والذخائر مثل النحاس والحديد التي اشتهرت بها الاناضول، كما فرض حصارا تجاريا على الدولة الصفوية، ولاسيما على تجارة الحرير التي تمر عبر الاراضي العثمانية عن طريق حلب-الاسكندرونة في طريقها الى اوروبا الذي يقوم بمقايضتها بالذهب، مما خفض ايرادات الصفويين بشكل ملحوظ. وخطا السلطان خطوة اخرى، حين اخذ يصادر البضائع الايرانية من جميع التجار لشحنها من الجانب الاوربي في الروملي، ما اثر على حركة التجار الذين تحولوا نحو الجنوب عبر العراق. واخيرا قرر الاستيلاء على الطرق التجارية الشمالية مع الهند، ولما كانت الدولة الصفوية تقوم حصر عثرة في سبيل ذلك فقد قرر القضاء عليها.

- العامل الاسري:

فضلا ن العاملان السالفي الذكر كان من عوامل الصراع ايضا العامل الاسري، فقد كان سليم الاول حفيد من ناحية امه عائشة خاتون لعلاء الدولة بك حاكم امارة دلقادر(ذو القدر)الذي احتل اسماعيل الصفوي امارته، كما كان السلطان مراد اخر سلاطين الاق قوينلو

متزوجاً من عمّة السلطان مراد. لذا يبدو ان عاملاً شخصياً كان محركاً لسليم الاول ضد الدولة الصفوية.

4. مراحل الصراع الصفوي-العثماني:

- المرحلة الاولى: (1514)...معركة جالديران.

تقدم سليم عبر ارزنجان وارضروم الى اعالي الفرات ، ولم تكن قوة الجيشين العثماني والصفوي متكافئة، لا في العدد ولا من حيث التسليح والتجهيز. فقد بلغ عدد افراد الجيش العثماني 140.000 مقاتل، في حين لم يتعد عدد افراد الجيش الصفوي العشرين الف. وكان الجيش العثماني مجهزاً بقوات الفرسان والمشاة والمدفعية وتسانده قوة بحرية كبيرة، في حين افتقد الجيش الصفوي الى وسائل التسليح المتطورة كالمدفعية، وكان في جهل تام بالسلاح الناري الذي استخدمه العثمانيون. لذا تجنب الشاه اسماعيل القتال هرباً من تفوق قوات سليم، عازماً على سحبه الى اراضي شمالي ايران الجبلية حيث تمكنه طبيعة الاراضي ومشاكل التموين من موازنة قوة الجيشين. وفي اواسط اب 1514 قرر السلطان سليم الزحف على تبريز لإرغام الشاه اسماعيل على خوض القتال دفاعاً عن عاصمته. وكان اسماعيل يفضل التراجع لولا ضغط قبائل القزلباش التي غضبت بسبب اتهام العثمانيين لها بالجبن وطالبت بخوض غمار القتال. واخيراً وقعت الموقعة الفاصلة في سهول جالديران في منتصف الطريق بين ارزنجان وتبريز في 23 اب 1514، وكانت المعركة بمنتهاى الضراوة الى درجة وصفت من قبل المؤرخين الاتراك بيوم القيامة أو يوم الفناء. وقد انتصر السلطان سليم بفضل اسلحته النارية المتطورة الجديدة وذلك بعد ان قتل الافاً من رجال قبائل القزلباش، وتمكن الشاه اسماعيل من النجاة بصعوبة كبيرة بعد ان اصابته بجروح. وبعد الموقعة ضم سليم الى دولته ولايتي ديار بكر وكردستان واحتل تبريز ونقل ألفاً من أبرز تجارها وحرفيها وعلمائها الى الاستانة. ورغم ذلك فقد قرر اخلاء المدينة خشية تناقص التموين خلال فصل الشتاء، وتراجع الى قره باغ في القوقاز على امل أن يعود في العام القادم

لاستكمال احتلال ايران. ولكن استرجاع الصفويين لتبريز واستمرار مشاكل التمويل وهبوط الروح المعنوية في جيش سليم ارغمه في النهاية على سحب جيوشه إلى الاناضول حيث أدى الشتاء القارص الى موت عدة الاف من قواته، مما ادى الى عجز سليم الاول على معاودة قتال الصفويين خلال الربيع وفقاً لما كان قد قرره. وقد ترتب على معركة جالديران نتائج عدة اهمها:

1. ان معركة جالديران او بالأحرى الانتصار العثماني الحاسم على الصفويين شكل منعطفاً في تاريخ الاناضول الشرقي، وكان الحاق الهضاب المرتفعة هناك بعد المعركة مهما من الناحية الاستراتيجية للدولة العثمانية فقد تم ادخال الاناضول دائرة الامان تجاه الاخطار القادمة من الشرق وفضلاً عن هذا فان ارضروم ووان وديار بكر اي الاقاليم التي تشكل الاناضول الشرقي ستستخدم قواعد عسكرية للعمليات المزمع القيام بها في كل مكان من ايران والعراق والقوقاز في القرن السادس عشر الميلادي. فضلاً عن ذلك كان الحاق المنطقة بالدولة العثمانية له اهميته من الناحية الاقتصادية لا تقل شأنًا عن الناحية الاستراتيجية. اذ سيطر العثمانيون بهذا وبشكل كلي على طريق تبريز- حلب وتبريز - بورصة اي على طريق الحرير، كما ان المدن الغنية الواقعة على الطريق التجاري اصبحت تدر اموالاً طائلة لخزينة الدولة العثمانية. واهم من ذلك كله ارتباط امراء الاقاليم الواقعة في المنطقة بالدولة العثمانية بعد ان غيروا ولائهم من الدولة الصفوية.

2. اخذ الامراء الاكراد في شمال العراق الذين كانوا خاضعين للسيطرة الصفوية بالانضواء تحت لواء العثمانيين، فبعد هذه المعركة بدأ العد التنازلي لالتحاق هذه المناطق او الاجزاء المتبقية منها الى الدولة العثمانية، اذ اصبحت الطريق مفتوحاً امام العثمانيين للتقدم نحو مراكز الاقاليم والقلاع لضمها الى ممتلكات الدولة العثمانية، بل اصبحت الطريق امامهم ممهداً لاحتلال كل العراق والمنطقة الشرقية للجزيرة العربية فيما بعد.

3. خمود المشكلة الصفوية مدة عشرين عاما تقريباً، ذلك ان الضربة التي تلقتها الدولة الصفوية لم تكن قاضية، وتعذر على العثمانيين ان يسقطوا الحكم الصفوي.

- المرحلة الثانية: (1515-1516).

كانت ديار بكر من اهم القلاع والمدن الواقعة في جنوب شرق الاناضول وكانت كغيرها من القلاع واقعة تحت الحكم الصفوي . وبعد معركة جالديران مباشرة جند السلطان المؤرخ الكردي المشهور إدريس البدليسي لإخضاع المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية من الاناضول للدولة العثمانية. وكان البدليسي يعمل كاتباً في ديوان الاق قوينلو قبل ان يسيطر عليها الصفويون. وبعد معركة جالديران دخل في خدمة الدولة العثمانية، وسعى ادريس بكل ما اوتي من قوة للقيام بهذه المهمة. في بادئ الامر تمكن من اقناع امراء بعض الاقاليم بالخضوع للسلطان العثماني. ثم التقى بحاكم صوران الامير سيد بن شاه علي واخضعه للسلطان ورغبه بتخليص بلاد اربيل من ايدي الصفويين . كما كسب الامير سيف الدين حاكم العمادية وابنه الامير سلطان حسين الى العثمانيين وقدم له الهدايا التي ارسلها السلطان اليه. وتمكن ادريس في نهاية المطاف من كسب 25 اميراً من امراء الكرد وبضمنهم امراء جزيرة ابن عمر وحسنكيف وسعرد وبتليس وحيزان واخضعهم للدولة العثمانية. ولم يكتف الامراء الاكراد بإعلان الولاء للسلطان العثماني بل سعوا الى تصفية الحكم الصفوي في المنطقة واستبداله بالحكم العثماني. فعلى سبيل المثال قام حاكم بوختي بأخذ الجزيرة والموصل من ايدي الصفويين وغنم اموالهم، كما خلص حاكم صوران سيد بيك اراضي اربيل وكركوك من الصفويين وخطب باسم السلطان العثماني. وفي هذه الاثناء اعلن وجهاء ديار بكر ولائهم للسلطان العثماني بعد ان حثهم الملا ادريس على ذلك وطردهم الصفويين من قلعتها وقتلوا رجال محافظها الصفوي اوستالجو محمد خان ونهبوا اموالهم وحلوا محلهم لحماية القلعة، ثم ارسل امراء ديار بكر رسائل بواسطة الملا ادريس الى السلطان سليم يعلنون فيه ولائهم وخضوعهم له. وبالمقابل قدر السلطان ما قاموا به وذلك في مناشير ارسلها لهم. ولكي يكون لهذه المناشير وقع مؤثر فقد تم توزيعها من قبل الملا ادريس نفسه، كما كتب السلطان رسالة الى ادريس اثنى عليه لما قام به ورفع شأنه وارسل اليه الهدايا. ويعود سبب نجاح الملا ادريس في هذا الصدد الى التأثير العام لمعركة جالديران، فالعثمانيون

حققوا النصر وانهم سيتوجهون لا محالة نحو المناطق الكردية التي تعاني من التفكك السياسي ولن يكون اما الاقاليم الصغيرة خيار غير الخضوع للقوي المنتصر وفضلاً عن هذا كان ادريس ذا اطلاع واسع على الظروف السياسية والاجتماعية في تلك الارحاء وهو ابن المنطقة ومن بدليس (بتليس) بالذات ودخل في خدمة دولة الاق قوينلو قبل ان يسيطر الصفويون على ممتلكاتها. وعلاوة على هذا كان عالماً فاضلاً معروفاً بين الاكراد بشخصيته الفذة وقدرته على الاقناع ومن هنا جاء اعتماد السلطان سليم عليه في تنفيذ ما عهد اليه. ويبدو ان الحكم العثماني لم يترسخ في منطقة ديار بكر والقسم الشمالي الشرقي من العراق في هذا الوقت بالذات، اذ كان هذا الامر مرتبطاً بوجود السلطان سليم الاول وجيشه في المنطقة وزوال الحكم الصفوي منها. ويبدو من مجريات الاحداث ان العثمانيين على الرغم من خضوع امراء الاقاليم الكردية للدولة العثمانية لم يربطوا بأي قوة عسكرية في المنطقة، ولم يأخذوا في الحسبان ان خضوع هذه المناطق مرتبط بالوجود الفعلي للقوات العثمانية فيها. فبعد مغادرتهم المنطقة اختل التوازن من جديد لغير صالحهم. فبانسحاب السلطان العثماني سليم الاول من تبريز عاد الشاه اسماعيل الصفوي اليها. وبدأ بإصلاح ما خربه العثمانيين فأعاد تنظيم جيشه وشرع في اعادة نفوذه المنهار الى المنطقة من جديد. ثم سعى الى استعادة ديار بكر واعادة الامراء الذين غيروا ولائهم الى حظيرة دولته. وعهد هذه المهمة الى قرة خان شقيق اوستالجو محمد خان والي ديار بكر السابق الذي قتل في معركة جالديران وارسله على راس قوة عسكرية لاستعادة ديار بكر. وحاصر قرة خان مع جيشه المتكون من خمسة الاف مقاتل ديار بكر وحاول اقناع امراءها بتسليم المدينة من غير فائدة. وقد استمر حصار الصفويين لديار بكر سنة كاملة ولم يتمكنوا من اقتحامها، وابلغ ادريس الوضع للسلطان وطلب منه ارسال قوات لإنقاذ آمد دون تأخير. واثر هذا امر السلطان سليم بيقلي محمد باشا الذي تقلد ادارة مناطق ارزنجان وبايبورد بالسير الى ديار بكر على رأس قوة عسكرية، ولم يكن الملا ادريس غائباً من هذه المهمة، اذ سعى الى حشد الامراء الاكراد والانضمام الى القائد العثماني. كما انضم شادي بيك والي اماسيه وسيواس مع خمسة الاف فارس اليهم. وادرك الوالي الصفوي قرة خان امام هذا الحشد الهائل من المقاتلين والقوات

المحلية، عدم تمكنه من مواجهتهم فترك ديار بكر الى ماردين التي كانت تحت سيطرة الصفويين . وفتح امراء ديار بكر ابوابها الى القوات العثمانية والمتطوعين الاكراد في 10 ايلول 1515، الا ان القائد العثماني بيقلي محمد باشا لم يدخل المدينة بل سار نحو ماردين لمقابلة القوات الصفوية بقيادة قره خان، الذي خاف من البقاء في ماردين وانسحب نحو سهل سنجار. ودخلت القوات العثمانية الى ماردين بعد ان فتح أمراؤها الابواب لهم بسعي من الملا ادريس. وحدث بعد ان فتح ماردين مباشرة ان دب الخلاف بين بيقلي ومحمد باشا وشادي بك ، وتمخض هذا عن انسحاب القوات العثمانية من ماردين، الامر الذي استغله قره خان الى اعادة السيطرة عليها وطلب التعزيزات من تبريز. وعندما علم السلطان سليم بكل ذلك ارسل خسرو باشا والي قرمان على رأس قوة كبيرة الى ديار بكر، كما ارسل الشاه اسماعيل الصفوي هو الاخر تعزيزات عسكرية الى قره خان.

انظمت التشكيلات العسكرية للقادة الثلاثة خسرو باشا وبيقلي باشا والشيخ البدليسي، وتوحدت فصائلهم، فكان جيشاً عثمانياً اثمرت عملياته عن نتائج مهمة في حسم الموقف الاقليمي لصالح سليم. وفي بداية الامر ارسلت قوات مؤلفة من 4000 مقاتل، فالتقت بالصفويين، ودارت معركة ضروس لم يسلم فيها من الجند العثماني الا الف رجوعوا منهزمين امام الصفويين. وربما اراد العثمانيين اختبار قوة الصفويين. وبدأ فصل المواجهة بين القوات العثمانية وجيش الصفويين في تلك الاقاليم بقيادة قره خان وعلى مقربة من قوج حصار الواقعة بين اورفة ونصيبين من شهر نيسان 1516. كان الجيش العثماني يتألف من قوة خسرو باشا على اليمين، وقوات البدليسي على اليسرة وقوات البيقلي في القلب، فدارت رحى معركة عنيفة عرفت غاية في الضراوة وهي الثانية في مواجهة قره خان الذي اصيب برصاصة اردته صريعاً، فوهنت قواته، وانهزم جنوده شر هزيمة وقد سميت هذه المعركة بمعركة (قره غين دده) نسبة الى المكان الواقع في جنوبي ماردين. واثرت هذه المعركة استسلمت بعض المواقع الحصينة في المنطقة الى العثمانيين كما فتحت مدينة ماردين ابوابها للقوات العثمانية، الا ان قلعة ماردين التي كانت في عهدة سليمان بك اخي قره خان

لم تستسلم فحاصرتها القوات العثمانية. وفي هذه الاثناء كان السلطان سليم الاول يقود حملته العسكرية في بلاد الشام وارسل الى بيقلي محمد باشا الذي عين والياً على ديار بكر وامره بالالتحاق به ولهذا فأن الاستيلاء على هذه القلعة قد تأجل الى اجل غير مسمى. وبعد ان انجز السلطان سليم الاول المرحلة الاولى من حملته الى بلاد الشام ومصر والتي توجهها بتحقيق النصر على المماليك في معركة مرج دابق، اصدر أوامره الى بيقلي محمد باشا لأخذ القوات التي كانت تحت امرته والتوجه نحو ماردين وفتح قلعتها. وعاد محمد باشا الى المنطقة وفتح قلعة ماردين على اثره تمت السيطرة على القلاع الموجودة هناك. وعلى الرغم من هذه العمليات العسكرية وما رافقها من انتصارات وخضوع قلاع ومراكز واماكن كديار بكر وماردين للحكم العثماني الا ان كل ذلك لم يكن كافياً لإخضاع كردستان واقامة الادارة الفعلية للعثمانيين فيها طالما بقيت مواقع حصينة ك الرها (اورفة) والرقه والموصل لم تخضع للدولة العثمانية. وبالفعل لم يكتف بيقلي محمد باشا بفتح ماردين بل واصل فتوحاته وسيطر على الرها ثم توجه نحو الموصل، وكان حاكمها الصفوي احمد بك الافشاري يدافع عن قلعتها، الا ان محمد باشا تمكن وبدعم من بدر بك حاكم جزيرة ابن عمر من أخذها. وسرعان ما وقعت الموصل بيد العثمانيين ولا نعرف مصير القوات الصفوية المرابطة فيها، ويبدو انها انسحبت من المنطقة برمتها بعد ان اخلت القلاع والمراكز. وذكر وبعد الحاق محمد باشا الموصل بالحكم العثماني انضوت كل من قلاع سنجار وتلعفر وارغني وسيوه رك وبيره جك بالكامل تحت الادارة العثمانية وعدت كل الاراضي الكردية جزء من الدولة العثمانية. فضلا عن ذلك كانت البلاد التي تسكنها قبائل بكر ومضر وربيعه التي كانت تشكل سناجق ديار بكر والرها والموصل قد خضعت للدولة العثمانية بفضل الكفاءة العسكرية لبيقلي محمد باشا وبفضل المفاوضات الناجحة التي اجراها البديسي مع امرائها وكان ادريس يسعى لتنظيم الادارة الداخلية لهذه البلاد واشاعة الامن والنظام فيها بكل التدابير المتاحة وتعزيز روابط الامراء الذين اخضعهم لأوامر الدولة العثمانية. وافر السلطان جميع هذه الاجراءات وابلغ ادريس بذلك في فرمان ارسله اليه. ولكي يكمل ادريس المهمة التي باشر بها بشكل موفق، قسم ديار بكر الى بضعة سناجق (الوية) وذلك لتيسير الادارة فيها،

وفي السنة التالية، تم قبول حكومتي الرها والموصل فيها أيضاً. الا انه لم يكن بالإمكان اطلاق حكومة مطلقة في المنطقة وذلك لأن كردستان كانت تضم امراء بعدد قلاعها ويغلب على افكار امرائها اي رؤساء عشائرها نزعة الاستقلال. واخضع ادريس هذه البلاد بمساعيه المتواصلة وكان لابد من استخدام اللين والاستمالة معها. وقد اعلن زعماء الاقاليم والعشائر وامراء المقاطعات ولاءهم للدولة العثمانية، ولكنهم اشترطوا على البدليسي استمرارهم في حكم اقطاعاتهم، وقد قطع الشيخ البدليسي لهم جميعا موثيق سياسية يبدأ العمل بها من خلال ما تنص عليه من مواد قانونية هي:

1. الاحتفاظ بعائدية تلك الاقطاعات واستغلالها.
 2. يجري حكم الوراثة من انتقال الاقطاع الى اولاده الذكور، واذا اراد التصرف بها حسب الاعراف المحلية السائدة، فيستوجب آنذاك اصدار فرمان سلطاني بالموافقة على ذلك.
 3. تقوم هذه الاقطاعات بتقديم المساعدات للدولة في جميع حروبها.
 4. تحافظ الدولة على هذه الاقاليم ضد الاعتداءات الخارجية.
 5. دفع الصدقات والرسوم الشرعية لبيت المال الخاضع لسلطان الدولة.
- وقد ارسل السلطان سليم خلعاً كثيرة الى الامراء الاكراد وعلى رأسهم ادريس للخدمات التي اسدوها في فتوح المنطقة كما ارسل منشوراً الى ادريس أثنى فيه على الجهود التي بذلها والخدمات التي اسداها الى الدولة العثمانية.

- المرحلة الثالثة: حملة بييري محمد باشا الى غربي العراق والسيطرة العثمانية على منطقة عانة. هيت (1518).

يبدو ان العثمانيين اكتفوا بما حققوا من انجازات عسكرية في جنوب شرق الاناضول وشمال العراق وتوجهت جهودهم نحو تعزيز وجودهم السياسي والعسكري في المناطق الجديدة، لكن السلطان سليم الذي كسر شوكة الصفويين وانهى الحكم المملوكي في مصر

وبلاد الشام كان عليه ان يواصل عملياته العسكرية ويؤرق بها الشاه اسماعيل الصفوي، ولهذا نراه بعد عودته من مصر الى حلب، يرسل الوزير الاعظم بييري محمد باشا على رأس حملة الى شمال العراق. وانطلق الوزير الاعظم على رأس قوة من ألفي مقاتل من الانكشارية وعددا من جنود الاناضول والروملي وتوجه على امتداد نهر الفرات في 19 ايار 1518 اي الى غربي العراق وتوج بييري محمد باشا حملته بالاستيلاء على مدينتي عانة وهيت الواقعتين الى الشمال الغربي من بغداد وعلى الشاطئ الايمن من نهر الفرات وبهذا امن وضعا هدد فيه بغداد التي كانت تحت الحكم الصفوي . اي انه لم يواصل تقدمه وبقي مدة من الزمن على شاطئ نهر الفرات ورأى انه لم يصدر اي رد فعل من الشاه اسماعيل الصفوي، ولهذا عاد الى أدرنه تنفيذاً لأمر تلقاه من السلطان. ويرى بعض المؤرخين العثمانيين ان قيام السلطان سليم بأرسال الصدر الاعظم بييري محمد باشا من حلب الى الحدود الايرانية لم يكن الهدف منه ان يجعله يواجه الشاه اسماعيل الصفوي واشعال الحرب بينهما، بل استدراج الشاه الى داخل الاراضي العثمانية للقيام بحملة جديدة والحاق شمال العراق بالكامل بالدولة العثمانية . وقد افصح السلطان سليم عن نيته هذه الى بييري باشا. ويبدو ان حملة الصدر الاعظم بييري محمد باشا الى منطقة عانة وهيت كانت اخر حملة عثمانية الى العراق في هذه الفترة، اذ لم تورد هذه المصادر العثمانية اي عملية عسكرية اخرى، وتلتها فترة كانت بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة. وانتهت حملة بييري محمد باشا المرحلة الاخيرة من الحملات العسكرية الاولى التي حققت للعثمانيين السيطرة على اجزاء واسعة من منطقة الجزيرة تشمل منطقتي سنجار والموصل في الشمال وحتى تكريت جنوباً وتمتد من تكريت شرقاً الى الجنوب الغربي اي منطقة حوض الفرات الممتدة من الحدود العراقية-السورية الحالية الى مدينة هيت مشتملة مركزين مهمين هما عانة وهيت. ويستشف من هذا التحديد ان المنطقة الشمالية الشرقية من العراق ظلت خارجة عن نطاق هذه المناطق المحتلة من قبل العثمانيين.

لقد شكلت منطقة الجزيرة ولاية متميزة في السلطنة العثمانية، وظلت مدن الموصل وعانة ومناطق اخرى في شمال العراق سناجق من تلك الولاية حتى عام 1524. وعلى

حدود مناطق الدولة الصفوية رابطت حاميات عثمانية قوية، واقام في مختلف القرى قرابة عشرة الاف فارس عثماني، كما طبق النظام الزراعي الاقطاعي المشروط بالخدمة العسكرية. وقد ساهمت السلطة العثمانية هناك في انتعاش الحياة الاقتصادية لهذه المنطقة الغنية بالأراضي الزراعية، وقد استصلحت الاراضي المهجورة من جديد على ايدي المزارعين الاشوريين الذين تركوا المناطق الجبلية الصعبة واخذوا ينزحون بكثافة الى سهول الجزيرة. وطبقت القوانين العثمانية لاستغلال الاراضي في مختلف المناطق، ونظمت لذلك دفاتر خاصة. وقد الغى العثمانيون الضرائب الجائرة وعمليات ابتزاز الاموال التي كانت تمارس على الفلاحين في عهد الاق قوينلو والصفويين. وفي عام 1518 ظهرت اولى القوانين-نامه لديار بكر واورفة وماردين وغيرها من سناجق منطقة الجزيرة.

5. التوسع العثماني اتجاه العراق عام 1534: حملة السلطان سليمان القانوني:

- الاحداث التي سبقت حملة سليمان القانوني:

لم تمض على المعركة العظمى التي وقعت بين الدولتين العثمانية والصفوية والتي قادها زعيما الدولتين اي معركة جالديران إلا 19 او 20 سنة كانت بمثابة هدنة غير موقعة بين الطرفين رغم حدوث بعض المعارك التي قادها قادة ميدانيون، وتمخض عنها تثبيت الحكم لعثماني في القسم الاكبر من شمال العراق. وفي هذه الفترة توفي السلطان العثماني سليم الاول عام 1520 وتقلد العرش ابنه سليمان الذي تلقب بالقانوني، كما توفي الشاه اسماعيل الصفوي عام 1524 واعتلى ابنه طهماسب الاول عرش الدولة الصفوية، التي اتسمت السنوات العشر الاولى من عهده بالاضطرابات والصراع على النفوذ بين زعماء القزلباش. ولم ينته الصراع بين الدولتين العثمانية والصفوية بل ساد جو من العداء على العلاقة بينهما، ولم يتوقف العثمانيون من اتهام الصفويين بالقيام بنشاطات معادية ضدهم وبخاصة في الاناضول. وتنتهي هذه الفترة بالحملة السلطانية الثانية الى المنطقة، والتي قادها السلطان

سليمان بنفسه، وتسمى في التاريخ العثماني (عراقيين سفري) اي الحملة على العراقيين عراق العرب وعراق العجم.

لقد سبق قيام السلطان سليمان القانوني بحملته على ايران ثم العراق بعض الاحداث التي سرعت في اندلاع الصراع مجددا. فقد شهدت تخلي الامير الكردي شرف خان امير بتليس عن تبعيته للعثمانيين ولجوءه للصفويين، وتلقيه دعماً عسكرياً منهم، وكان شرف خان من الامراء الاكراد الذين يحكمون في المنطقة منذ القرن الثامن، وكان قد خضع للحكم العثماني في عهد السلطان سليم وعهد اليه بحكم بتليس. ولا نعرف دوافعه لهذا العمل، وربما تأثر بالدعاية الصفوية التي تزايدت في المنطقة. بالمقابل نعرف عن لجوء الوالي الايراني اولامه تكلو خان الى الدولة العثمانية، اذ عينه السلطان سليمان القانوني والياً على حصن كيف (حسنكيف) وجميع اراضي بتليس اي الاراضي التي كانت تحت عهدة شرف خان، ومنح له 400 الف دوقه (مليونى آقجه) كمخصصات سنوية. ويبدو ان اولامه لم يتمكن من الدخول الى بتليس رغم محاصرته لها، واضطر الى التراجع بعد وصول قوة ايرانية بقيادة شرف بك (وربما شرف خان حاكم بتليس الذي التجأ الى الصفويين) وقد وصلت اخبار هذه الهزيمة الى مسامع السلطان سليمان. من جانب اخر نجد ان الشاه طهماسب شجع الثورات الي قامت في الاناضول ضد العثمانيين، منها تلك التي قام بها بابا ذو النون عام 1526، وقلندر جليبي عام 1527. ولعل ابرز الاحداث التي سبقت حملة 1534 هي اعلان ذو الفقار خان تبعيته للدولة العثمانية بعد قيامه بحركته الاستقلالية ضد الدولة الصفوية. فقد استغل احد الزعماء الاكراد من قبيلة موصلو وهو ذو الفقار بن علي بك ضعف النفوذ الصفوي في العراق الاوسط والجنوبي، فقام في صيف 1527 بحركة بارعة اغتال فيها ابراهيم خان والي العراق الصفوي اثناء توجهه للقاء الشاه طهماسب. وانضمت القوة التي كان يقودها ابراهيم خان على الاثر الى اتباع ذو الفقار وتوجه على رأس تلك القوات الى بغداد فدخلها وحاصر القلعة ثم استولى عليها واعلن استقلاله عن الدولة الصفوية. وتشير رواية تاريخية اخرى ان ذو الفقار كان الوالي الصفوي المعين من قبل الشاه طهماسب وقد

لقب بـ(خليفة الخلفاء) ولا يعرف السبب الذي دفعه الى تغيير ولائه للدولة العثمانية. لقد ادرك ذو الفقار منذ بداية حركته ان امكاناته لا تقارن ازاء سطوة الصفويين. ولهذا بادر الى الاستعانة بالدولة العثمانية، فأظهر ولائه لها وامر بذكر اسم السلطان سليمان القانوني (1520-1566) في الخطبة ونقش اسمه على النقود، وبعث اليه بسفارة للإعراب عن ولائه له. ويبدو ان ما اقدم عليه ذو الفقار لقي ترحيباً كبيراً عند العثمانيين اذ لم يتأخروا في الاقرار بالأمر الواقع واصدار السلطان سليمان القانوني اوامره بتقليد ذو الفقار لواء بغداد وذلك في 12 نيسان سنة 1529. ولكن يظهر ان الخطوة العثمانية تجاه ما قام به ذو الفقار لم تتجاوز ارسال كتاب التقليد والهدايا اليه، وذلك لأن وضع الدولة العثمانية لم يكن يسمح بأن تقوم بأكثر مما قامت به لأسباب قد يأتي في مقدمتها انشغالها في الحروب في اوروبا وعدم امكانية توجيه قسم من ثقلها العسكري نحو المنطقة، لأن ذلك يعني المواجهة مع الصفويين، الامر الذي يتطلب تدخل السلطان شخصياً في المسألة وقيادته حملة عسكرية وهذا ما حدث بالفعل ولكن بعد خمس سنوات. لذلك جهز الشاه طهماسب الذي تولى العرش في 1524 جيشاً كبيراً تقدم به الى بغداد وفرض عليها الحصار. وفشلت هجمات الجيش الصفوي كافة امام صلابة المقاومة، التي قادها ذو الفقار، غير ان اخوين من اقرباء ذو الفقار قاما باغتيال الثائر غدرًا عام 1530 فانهارت المقاومة وعادت سيطرة الصفويين الى العراق مرة اخرى. وعين الشاه طهماسب واليا جديدا على بغداد هو محمد خان تكلو. كما عين عدداً آخر من الشخصيات الفارسية حكاماً على عدد من مدن العراق وامر بتعزيز دفاعات بغداد ثم عاد الى قزوين. وفي الوقت الذي سقطت فيه بغداد بيد الصفويين، تعرضت البصرة الى الحملة البرتغالية. فقد بدأ الاهتمام البرتغالي بالبصرة منذ نهاية العقد الثاني من القرن السادس عشر، وقد جاءت اول حملة برتغالية في عام 1529 عندما استعان راشد بن مغامس امير البصرة بالبرتغاليين ضد خصمه امير الحويزة، فبعث نائب الملك في الهند حملة بقيادة تافرز دي سوزا غير ان خلافا دب بين القائد البرتغالي وامير البصرة فقام بتدمير بعض القرى التابعة للبصرة ثم عاد ادراجه الى هرمز. وقد كان سبب الخلاف هو رفض راشد بن مغامس مساومة

البرتغاليين له حول بعض شروط التجارة. وقد لفت هذان الحدثان: عودة الاحتلال الإيراني الى العراق والتهديد البرتغالي لرأس الخليج العربي، نظر السلطان سليمان القانوني الى خطورة الحالة التي تهدد ظهر الدولة العثمانية نظراً لسلسلة المحالفات السياسية والعسكرية بين الصفويين والقوى الأوروبية، في وقت كانت الدولة فيه منصرفه الى قتال الامبراطورية الرومانية المقدسة في شرق اوروبا والبحر المتوسط وشمال افريقيا. ولهذا بدأ السلطان يفكر جدياً في مدة سلطانه الى العراق. واخذ بالاستعداد لأرسال حملة كبيرة الى ايران قدر لها الاستيلاء على بغداد وبقية العراق في نهاية عام 1534.

- اسباب حملة السلطان سليمان القانوني:

1. السبب الاقتصادي:

ان رغبة العثمانيين في السيطرة على طريق الحرير الوارد من تبريز نحو ارضروم وطوقاد الى الاناضول ومنها الى بورصة كان من اهم الدوافع لشن حملة جديدة على الدولة الصفوية. والحقيقة ان هذا الطريق اصبح سالكاً امام التجار منذ حملة سليم الاول، الا ان محاولة الصفويين استعادة ما فقدوه في هذه الحملة جعل الطريق في خطر، الامر الذي تطلب من القانوني التدخل العسكري لتأمين بقاء هذا الطريق سالكاً، فضلاً عن هذا كان العثمانيون يسعون للسيطرة الفعلية على طريق التوابل الواردة عن طريق البصرة- بغداد- حلب. وان هذا الطريق كان يدهمه خطران في آن واحد: الخطر البرتغالي في خليج البصرة والخطر الصفوي الذي مازال يسيطر على الاجزاء البرية منه. لكل ذلك اصبحت السيطرة على طريق بغداد- البصرة والرغبة في تأمين السيطرة على الطرق التجارية الممتدة من البصرة الى بلاد الشام والاناضول من اولويات الاهتمام العثماني. وينبغي ان لا ننسى هنا ان ايصال النفوذ العثماني الى البصرة، أي الثغر الشمالي للخليج العربي سيضع العثمانيين في مرحلة جديدة وهي السيطرة على الطريق البحري بين الهند والشرق الاوسط.

2. السبب السياسي:

اثناء انهماك العثمانيين بالحرب مع النمسا، جرى اتصال سري بين الصفويين والمجريين، اسفر عن تعاون الطرفين ضد العثمانيين، العدو المتكافئ لكليهما، كما تمكن الشاه طهماسب من تحقيق تحالف مع الامبراطور شارل الخامس امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة الذي كان في حالة حرب مع العثمانيين، وقد ارسل الامبراطور موفدين الى بلاط الشاه في عام 1529 لتعزيز علاقات الصداقة. زيادة على ذلك ان حوادث الحدود بين الدولتين الصفوية والعثمانية، الناجمة عن تحركات القبائل الكردية كانت احدى الاسباب المباشرة لإذكاء الحرب بينهما، فضلا الى الاوضاع المضطربة التي تحكم الاقاليم الصغيرة الواقعة على الحدود بين الطرفين والسياسة المتقلبة لحكامها. بل كان هناك نزاع مستمر بين اتباع الصفويين في الحدود الشرقية من الاناضول وبين امراء الحدود العثمانيين. وأتهم الشاه اسماعيل الصفوي بأنه بعد وفاة السلطان سليم عام 1520 استغل انشغال السلطان سليمان القانوني في حملاته في بلغراد ورودرس واعطى زخماً لنشاطاته الدعائية في الاناضول وسعى الى شن الغارات على الحدود العثمانية في شرقي الاناضول واقامة النفوذ على العشائر في المنطقة. كما استاء العثمانيون من محاولات الشاه طهماسب اثارة القزلباش في الاناضول، مقتنيا خطى والده اسماعيل، فعلى الرغم من قيام السلطان سليم الاول بمذبحته المشهورة تجاه القزلباش في الاناضول الشرقي لم يؤد الى استئصالهم في المنطقة. ومهما يكن من امر هذه الدوافع فلم يكن بإمكان العثمانيين التخلي عن فكرة الوصول الى الخليج العربي والامتداد الى مسلمي الهند وتحجيم دور الصفويين في المنطقة، ولتحقيق هذه الغاية كان لابد من السيطرة على الطريق البري المؤدي الى الخليج العربي عبر بغداد ثم البصرة. والا لو كانت المسألة تتعلق بالصفويين وما يشكلونه من تهديد في الجزء الجنوبي الشرقي من الدولة العثمانية لاقتصرت العمليات العثمانية على ردع الصفويين او القضاء عليهم بالتوغل الى اعماق اذربيجان وايران وليس الاكتفاء بالمناطق الحدودية ثم التوجه نحو العراق وليس متابعة السير نحو الشرق واحكام السيطرة العثمانية على العراق ومد نفوذهم الى البصرة لتكون منفذاً لهم الى الخليج العربي.

- حملة السلطان سليمان القانوني لاحتلال العراق:

شهدت العلاقات العثمانية-الصفوية ازمة كبيرة في عهد السلطان سليمان القانوني، وكان العثمانيون منشغلين بعملياتهم العسكرية في اوروبا، ولم يكن بوسعهم فتح جبهة ثانية ضد الصفويين في نفس الوقت، فكان لا بد من تعليق العمليات العسكرية في اوروبا للتفرغ من اجل التعامل مع الامر الواقع في الجبهة الجنوبية الشرقية للدولة طالما اصبحت الحرب مع الصفويين حالة لا يمكن العدول عنها. وبالفعل قام السلطان سليمان القانوني بحل المسائل العالقة في اوروبا وذلك عندما تبوء الشاه طهماسب عرش بلاد فارس.

كانت بداية الحرب العثمانية-الصفوية عندما خاض اولامه تكلو وهو احد المنشقين عن الدولة الصفوية، معركة ضد شرف خان المنشق عن السلطنة العثمانية وتمكن من التغلب عليه وقتله في 21 تشرين الاول سنة 1533، وأثر هذا حشد ابنه شمس الدين قواته وتقابل مع اولامه تكلو الا انه ادرك انه لن يتمكن من مقاومته فاتصل بالوزير الاعظم ابراهيم باشا معلنا طاعته للعثمانيين ولهذا عهد اليه ابراهيم باشا بتبليس ووعده اولامه باشا بتقليده وظيفة اخرى وكان الاجراء الذي اتخذه الوزير الاعظم صائبا وفي محله، اذ لو قام بتوجيه ادارة تبليس الى شخص اخر من غير الاسرة التي تديرها بالوراثة، فان الامراء الاكراد الذين كانوا يديرون اقاليمهم بنفس الطريقة سيفقدون الثقة بالحكومة العثمانية ويوجسون خيفة ويستغلون بالتالي اية فرصة سانحة لإعلان تبعيتهم وولائهم للدولة الصفوية.

كان شاه ايران طهماسب قد ورث عن ابيه اسماعيل عداءً مستحكماً مع قبائل الاوزبك في اقصى الشرق وكان يقودهم عبيد خان (1539-1540) من بلاده من جهة ومع العثمانيين المتأخمين له في الغرب من جهة اخرى، فبادر اولاً الى محاربة الاوزبك، الا ان السلطان العثماني سليمان القانوني (1524 - 1566) استغل حرب الشاه مع الاوزبك واراد السيطرة على طريق تبريز التجاري لذا ارسل اولامه تكلو، على رأس قوة صغيرة الى اطراف اقليم أذربيجان لاستطلاع الاوضاع العسكرية ولاستمالة سكان الاقليم الى جانب الدولة العثمانية قدر المستطاع. ثم اصدر السلطان اوامره الى صدره الاعظم ابراهيم باشا في

تشرين الاول 1533 بالتوجه هو الاخر على راس جيش كبير قدر بـ 100.000 مقاتل للالتحاق باولامه. وكان الصدر الاعظم ابراهيم باشا قد انطلق من اسطنبول صوب المنطقة ووصل الى حلب في كانون الاول 1533 وامضى فصل الشتاء فيها وقبل ان يخطو ابراهيم باشا اية خطوة قام بجمع المعلومات المتعلقة بتحركات الشاه والاضاع السائدة في بغداد وارجائها وكلف بهذا سليمان باشا الذي ربما عين في ايالة الاناضول بعد عام من عزله من ولاية ديار بكر 1532م. وبعد ان اجمع سليمان باشا بعض المعلومات، ارسل رسالة غير مؤرخة الى ابراهيم باشا اشارت الى ان محمد خان تكلو عين حاكماً على بغداد بعد ذو الفقار خان وجمع مؤناً تكفيه لمدة 3-4 سنوات ويسعى الى تحصين موقعه. وان علاقته مع العشائر العربية في ارجاء بغداد غير جيدة وعدائية وهو يقيم في داخل بغداد نفسها. كما اورد سليمان باشا في رسالته انه طلب من امير سنجق الموصل احمد بك ومن حسين بشري (وهو عربي كان يدير اقطاعاً للسلطان دون ان يذكر محل اقامته) طلب منهما احاطته علماً بالوضع في ارجاء بغداد. وقام حسين بشري بالتوجه مع جمع من الرجال الى ارجاء تاووق (داقوق) في كركوك واغاروا على الصفويين المتمركزين هناك وتغلبوا عليهم واسروا واحدا منهم وارسلوه اليه. وازاء هذا الوضع اوصى سليمان باشا القائد العثماني ابراهيم باشا، بالتاني والتريث لحين تمكنه (أي سليمان باشا) من الذهاب الى الموصل والحصول على اصح الاخبار ليتسنى له اتخاذ التدابير اللازمة على ضوئها. وكان سليمان باشا يرى ان بغداد قلعة حصينة جداً وينبغي فتحها عن طريق بذل الامان لأهاليها وإلا ينبغي تجهيز الجيش بمعدات من 3000-4000 فأساً ومثلها معولاً وهناك احتمال كبير ان ابراهيم باشا امضى الشتاء في حلب اثر هذا التقرير. وقد قرر ابراهيم باشا عقب ذلك، بالتوجه الى بغداد مثلما كان مقرراً في السابق الا انه وباقتراح من الدفتر دار اسكندر باشا قصد ديار بكر (ايار 1534)، وقد وصل الصدر الاعظم الى مدينة (آمد) اذ مكث فيها ستة اسابيع للتموين اتجه بعدها الى قلعة (اونيك) ثم الى قلعة (وان) ثم الى (عادل جواز) ومن هذه الاخيرة توجه الى اطراف اذربيجان حيث امر فيها اولامه وجيشه بالتقدم الى اردبيل، في الوقت الذي زحف هو على

مدينة تبريز. ولما سمع الشاه طهماسب بتوغل اولامه في اراضيه وعلم بنجاح ابراهيم باشا باقتحام تبريز، بادر الى عقد صلح مع الاوزبك وارسل فرقة من (القلزباش) لمواجهة الحملة العثمانية ولما علم ابراهيم باشا بالأمر بعث الى السلطان سليمان يستقدمه على جناح السرعة وذلك لعجزه على مواجهة الشاه طهماسب لوحده وقد استجاب السلطان لطلب صدره الاعظم واعد جيشاً في ايار 1534 قاصداً به تبريز، وفي تشرين الاول 1534 وصل مصيف (اوجان) في اذربيجان فهب ابراهيم باشا فيه لاستقباله ولما كان في نية السلطان سليمان مواجهة طهماسب وجها لوجه فانه غادر مصيف اوجان في طريقه الى (سلطانية) ليزحف منها الى قزوین عاصمة الدولة الصفوية آنئذ لدحر الشاه في عقر داره، الا ان الامطار الغزيرة التي هطلت والثلوج الكثيرة التي تراكمت في الطرقات ادت الى هلاك عدد كبير من رجال الحملة العثمانية وولدت تدمراً بين افراد الجيش ولكن رغم ذلك استطاع السلطان قيادة جيشه باتجاه قزوین وقد نشرت انباء زحفه الهلع في صفوف الجيش الصفوي ولاسيما أولئك المتمردين منهم حيث مال فريق منهم الى تأييد السلطان سليمان، كما اعلن بعضهم العصيان في وجه الشاه الا ان سوء الاحوال الجوية خدمت الشاه فالشيء الذي لم يستطع فعله في مواجهة جيش السلطان سليمان فعله الطقس، حيث ان الامطار والثلوج الكثيرة التي تراكمت خلفت الاحوال في الطرقات وادت الى غوص العربات والمدافع فيها فأثر هذا الوضع على نفسية الجيش العثماني وزاد في قلقه وتدمره واضطرابه لدرجة ان فريقاً منه تجرأ وطالب بالعودة الى الوطن ونتيجة لذلك اضطر السلطان الى مغادرة مدينة السلطانية ولما كان الرجوع الى اذربيجان في ذلك الفصل يعني مواجهة القحط والمجاعة لذا قرر التوجه الى الموصل عن طريق شهرزور لقضاء فترة الشتاء والعودة بعدها الى مواجهة طهماسب في بلاده ثانية عند حلول فصل الربيع. في اثناء ذلك وصله وفد من الحامية الفارسية في بغداد يحمل اليه مفاتيح المدينة علما ان حاكم بغداد محمد خان كان قريباً لاولامه تكلو. ومن المعروف ان الاوضاع في بغداد كانت قد اضطرت نتيجة فزع الحامية الفارسية حيث كانت اخبار الجيش العثماني تتوارد الى العراق عن طريق رسائل كان يبعثها باستمرار اولامه تكلو

والصدر الاعظم العثماني الى بغداد بقصد اضعاف معنويات حاكمها، وقد اذت تلك الرسائل الى انقسام ابناء قبيلة تكلو في بغداد الى مجموعتين احدهما تؤيد الشاه والثانية تروم التعاون مع الدولة العثمانية، وقد حاول محمد خان اقناع الفريق الثاني بالعدول عن موقفه والتعاون معه لصد الهجوم المتوقع والدفاع عن بغداد وقلعتها بعد ان وصلته رسائل سليمان القانوني وهي تتضمن الاغراء والتهديد، الا ان هذا الفريق أبا ذلك. وفي هذه الاثناء وصله رسول من الشاه يدعوه حاميته للتوجه الى قزوین، ولما عرض الامر على قبيلته رفضت الدعوة بل تحصنت في المدرسة المستنصرية، واعلنت التمرد ضده وجاهرت بالولاء للدولة العثمانية ولما لم يكن في استطاعته الدفاع عن بغداد، كما لم يكن في مقدوره مغادرتها وحده اتصل بقيادة المعارضين وتظاهر امامهم بأنه قد غير رأيه واخبرهم بموافقته على تسليم بغداد الى السلطان وطلب منهم تنظيم وفد من زعمائهم للذهاب اليه واستقدمه فرحب القادة المعارضون بقراره وهرعوا الى السلطان فرحين لاستدعائه، وعندئذ انتهب خلو المدينة منهم فجمع ماله وحاشيته وعبر نهر دجلة ليسلك الطريق البري فآراً الى البصرة. وقد تسلم سليمان القانوني مفاتيح بغداد من وفد من قبيلة تكلو وكان آنذاك على مشارف سهل ماهي دشت بالقرب من كرمان في طريقه الى العراق، لذا تحرك على الفور بهدف الوصول الى بغداد. لقد فتح السلطان سليمان بغداد دون قتال في كانون الاول 1534، وقد دخل بصحبة حاشيته فقط الى المدينة ومن الامور الهامة التي يجب الاشارة اليها، ان السلطان لم يسمح لجيشه بدخول المدينة خوفاً من عدم استطاعته كبح جماحه وتلافياً لأعمال النهب، ولو اخذ بنظر الاعتبار ما صاحب جيش سليمان من مجاعة عبر الطريق الشاق الطويل وما عاناه من كثرة هطول الامطار وتراكم الثلوج لاستطعنا تصور حالة بغداد لو سمح للجيش بدخولها، لذا سلمت المدينة من السلب والنهب والهدم، وهذا ما لم يعهده سكانها في تلك الايام من المحتلين. ومن الجدير بالذكر ان مدينة بغداد كانت عند دخول السلطان سليمان القانوني محاطة بسور على شكل قوس يتخلله حوالي 150 برج وفيه اربعة ابواب يدعى الشمالي منها باب الامام الاعظم، والجنوبي يسمى الباب المظلم، والشرقي الباب الابيض، اما الباب

الغربي فاطلق عليه باب الجسر، الذي كان يؤدي الى قلعة لطبور في الجانب الغربي من (الكرخ) وكان يحيط السور خندق عميق، اما المدينة فأنها كانت خربة لا اثر لدور العلم والمدارس والمساجد التي اشتهرت بها في العصور السالفة، فالمدرسة المستنصرية مثلاً كانت قد تحولت الى مخزن للبضائع في الوقت الذي اصبحت المدرسة النظامية اثرأ بعد عين. وخلال مكوث السلطان في بغداد قام ببعض الاعمال العمرانية، منها توسيع مرقد الامام ابي حنيفة وبناء قبة عليه ومدرسة وجامع وزاوية الى جواره وسور حوله ووضع حامية بقربه لحماية زواره ومن جهة اخرى قصد السلطان مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني وامر المعمار العثماني سنان باشا بتشييد قبة للمسجد، فانجز هذه القبة البيضاء ودار السبيل، وفي اطراف بغداد زار السلطان مرقد الائمة والمشايخ والاولياء كما قصد العتبات المقدسة في الكاظمية وكربلاء والنجف. ومن اعماله الهامة محاولة تعميقه نهر الحسينية الذي يروي مدينة كربلاء وبساتينها. فضلا عن امره ببناء سدة ترابية لإنقاذ المدينة من الغرق الذي كان يصيبها في سنوات فيضان نهر الفرات، ولا تزال هذه السدة تسمى باسمه روف السليمانية. ومن كربلاء سلك الطريق الصحراوي الى النجف لزيارة مرقد الامام علي ابن ابي طالب (ع) ومنها قصد الكوفة ثم توجه الى الحلة ومنها عاد الى بغداد وخلال مكوثه فيها امر بإصلاح اسوار وابراج المدينة وقلعتها، ولكن مع الاسف قام باستبدال باب السلطان الاثرية بباب خشبية من الصاج المضرب بالمسامير الحديدية وبيض واجهتها بالجص وبذلك ازال ما كان عليها من كتابة اثرية. ومن جهة اخرى قسم البلاد الى وحدات ادارية وادخل نظام الاقطاع الذي كان معروفاً في المقاطعات الاخرى من دولته، ومنح التيمار والزعامات الى الجنود والقادة الذين اظهروا البطولة في الحملة الخيرة على بلاد فارس والعراق كما نظم سجلات للأملك الخاصة والاقواف واوكل ولاية بغداد الى سليمان باشا وعقد عدة اجتماعات للديوان وزود الحاكم الجديد بحامية من حوالي الف جندي مزودين بالأسلحة النارية والف فارس وتموين كاف للدفاع عن المدينة ان اقتضت الضرورة امام هجمات الشاه طهماسب المتوقعة في المستقبل.

لقد اخضع الجهاز الاداري بعد احتلال السلطان سليمان القانوني للعراق لعملية اعادة تنظيم شاملة. فاستحدثت ولايات بغداد والموصل بعد فصل الاخيرة عن ولاية ديار بكر عام 1534. كما تطلب الامر اقامة نظام حقوقي جديد وسن قوانين-نامه محلية في الموصل وتكريت وبغداد وغيرها من المدن بهدف القضاء على الظلم والاستبداد. وفي نيسان غادر سليمان القانوني العراق وبقيت في البلاد قوات عثمانية بلغ عددها نحو 22000 تضم الفرسان-الخيالة(السباهية). ولو اضيفت اليها الفصائل المسلحة التابعة للأمرء الاكراد والبدو لبلغت هذه الجيوش درجة عالية من القوة. لقد تحول العراق في النصف الاول من القرن السادس عشر الى اقوى رأس جسر للقوة العسكرية العثمانية في الشرق.

في نهاية عام 1534 عاد السلطان الى اسطنبول، وعندما وصل الى مكان يدعى كوك تبه سمع بان الشاه طهماسب الاول قد بعث برسالة الى امير اربيل عز الدين شير، مما اثار شكوك السلطان العثماني فامر بقتله، وعهد بحكم اربيل الى الامير اليزيدي حسين بك الداسيني، ثم اضاف السلطان العثماني امارة سوران بكاملها الى اربيل وسلم ادارتها الى الامير اليزيدي المذكور. في فرمان 14 شباط 1537 ثبت السلطان سليمان قانون-نامه بغداد، اعلن انه لا يسمح لاحد بعد هذا القانون ان يعامل سكان المدن والقرى خلافا للقانون والشريعة. وكلف قاضي وبكلر بكى بغداد اعلام الجميع بذلك. وللتأكد من ذلك امر السلطان بقراءة قانون-نامه في جميع المدن والقرى ومناطق التجمعات السكنية. ووضعت في الوقت ذاته مبادئ لفرض الضرائب واستغلال الارض كما اجري مسح تفصيلي ونظمت الدفاتر سجلت فيها كل التفاصيل المتعلقة بالمقاطعات والاملاك.

- احتلال العثمانيون لبقية أنحاء العراق:

1. خضوع البصرة الى الدولة العثمانية:

لا شك ان بغداد لم تكن تعد مركزاً للمنطقة فحسب بل شرياناً حيويّاً يتحكم بكل العراق، وهذه الخصوصية لا تجدها في المراكز الاخرى كالموصل والبصرة، فبعد خضوع الموصل للعثمانيين ظلت بغداد تحت الحكم الصفوي ولم تتأثر من الناحية الاستراتيجية. كما لم تعد الموصل مفتاحاً لاحتلال بغداد، بل تم احتلال المدينة بوصول القوات السلطانية اليها من الناحية الغربية اي عبر خانقين. وبهذا كان احتلال بغداد على ايدي العثمانيين ايداناً بدخول المناطق المتبقية من العراق تحت حكمهم. ويبدو ان حكام هذه المناطق يعرفون هذا الامر جيداً ولهذا نجدهم يعلنون ولائهم للسلطان العثماني ولاسيما بعد ان لمسوا التفوق العثماني على الدولة الصفوية ولم يكن بمقدور هؤلاء التحرك خلاف هذا الامر. فكما حدث شمال العراق حيث اعلن الامراء خضوعهم للدولة العثمانية في عهد سليم الاول وبهذا حافظوا على اماكنهم، نجد ان الامراء في جنوب العراق اتخذوا نفس الموقف. ويأتي على رأس هؤلاء الامراء بلا شك امير البصرة الذي لم يتأخر في اعلان ولائه للسلطان سليمان. وكانت البصرة تابعة للصفويين اخذها الشاه اسماعيل الصفوي في عام 1508 من دولة الآق قوينلو. الا ان هذه التبعية لا تعني حكماً صفوياً مطلقاً بكل معنى الكلمة، اذ وقعت المنطقة تحت سيطرة بعض القبائل العربية ولهذا لم تشهد الاستقرار في الادارة. وكانت البصرة ومنذ مدة طويلة تدار من قبل عائلة راشد بن مغامس وتقرأ الخطبة باسمهم وتسك النقود باسمهم ايضاً، وربما كان النفوذ الصفوي فيها اسماً. وعند وصول السلطان سليمان القانوني الى بغداد كان يدير البصرة راشد ابن مغامس، وعندما علم بما آل اليه الامر في

بغداد، قصد السلطان سليمان واعلن خضوعه له، وفضلاً عن هذا قام رؤساء العشائر العربية في منطقة البصرة وفي الغراف والحويزة بإعلان ولائهم للسلطان، كما ورد الرسل من القطيف والبحرين يعلنون ولاء حاكمهم للسلطان. وفي عام 1538م ارسل الامير راشد بن مغامس وفداً برئاسة ابنه مانع وضم وزيره وقائد جنده مع هدايا كثيرة الى السلطان وسلمه مفاتيح مدينة البصرة واعاد اعلان خضوعه للدولة العثمانية، واثّر هذا عهد السلطان اليه بالبصرة على ان يقوم بضرب النقود وقراءة الخطبة باسم السلطان، ويعود سبب اتصاله بالسلطان الى خشيته من تحركات البرتغاليين في ارجاء المحيط الهندي ومضيق هرمز. وقد عهد السلطان بحكومة البصرة اليه تحت اسم (إيالة البصرة). وقد قام راشداً بسك النقود في البصرة باسم السلطان العثماني كما قرأ الخطبة باسمه ايضاً وذلك في 1538م. لقد تجسدت سلطة الباب العالي في هذه المرحلة وبشكل رئيس في تكريس خطبة الجمعة للسلطان ونقش اسمه على النقود. وفي افضل الحالات كان العثمانيون يرسلون السلاح وبنون الحصون ويركزون الحاميات الصغيرة. وكان ينبغي على راشد بن مغامس طالما عد اميرا عثمانيا ان يدير ايالته وفق القوانين الشرعية وبشكل ينسجم مع اوامر بكربكي بغداد. ولكننا لا نمتلك معلومات عن كيفية ادارة راشد للبصرة، والذي نعرفه انه وبعد راشد حل محله ابنه مانع، غير انه اضطر الى التنازل عن موقعه ليحيى شيخ بني امان. ويستشف من نوايا وتوجهات العثمانيين في هذا الوقت بالذات انهم كانوا يعدون العدة او يستهدفون الوصول الى سواحل خليج البصرة. وبمعنى اخر الوصول الى بوابة الدخول والخروج المهمة للمحيط الهندي، ولهذا فان وجود كيان مستقل في البصرة كان من شأنه عرقلة وصولهم الى هناك. ولم يمر وقت طويل حتى ظهر الدافع الذي يوجههم في الحركة نحو البصرة. ففي سنة 1546 طالب السلطان سليمان الشيخ يحيى بإعادة بعض الاشخاص المطلوبين من قبل العثمانيين والذين فروا الى البصرة، الا ان يحيى لم يكثرث بهذا الطلب، وبهذا اصبح كمن يدعو القوات العثمانية للتحرك نحوه. وبعد ان تلقى إياس باشا بكربكي بغداد امر التحرك نحو البصرة قام بتسيير اسطول مكون من 120 سفينة سلم قيادته الى سنجق بكري (امير سنجق) الموصل، كما ارسل القوات البرية تحت امره علي الذي ينتسب الى اسرة

ذو القدر. لقد سعى القائد العثماني في خلال تقدمه الى اخضاع القبائل المنتشرة بين بغداد والبصرة، ونجح في الحاق هزيمة بشيخ مشايخ ال قشعم الذي يلقب بشيخ العراقيين أي شيخ الكوفة والبصرة. وعندما وصلت هذه القوات الى القرنة وحاول ابن عليان حاكم منطقة الجزائر(شمال البصرة) صد هذه القوات اذ سار على راس ثلاثة الاف من اتباعه المقاتلين الى العثمانيين الا انه انهزم كما انهزمت امام العثمانيين القوات الواردة من اطراف البصرة. وهذه القوات هي بالتأكيد كانت تحت امره الشيخ يحيى الذي كان يتحكم بالبصرة، الامر الذي ادى الى هروب المدافعين عن البصرة. فبقيت المدينة دون دفاع فدخلها العثمانيون بقيادة إياس باشا في كانون الاول سنة 1546. وعين إياس باشا في ايلة البصرة بشكل مؤقت بلال محمد باشا واصبحت البصرة تحت السيطرة المباشرة للدولة العثمانية وفقدت ميزتها في الحكم المحلي الذاتي، ثم عين بلال محمد باشا بكلربكي فيها بساليانه (مخصصات سنوية) مقدارها مليون آقجه سنويا ويكون بذلك اول والي عثماني يتولى ادارة البصرة بشكل مباشر. لقد تحول جنوب العراق الى ولاية تابعة للسلطنة العثمانية، وقد خفض الوالي العثماني الضرائب والغى ابتزاز الاموال غير القانوني الذي كان يمارسه راشد بن مغامس، وادخل النظام العثماني العام للأراضي والضرائب، كما نشر بين الشعب قانون-نامه البصرة. وما اتسم بالأهمية البالغة ان والي بغداد حول جمارك البصرة التي كانت تتقاضى مبالغ طائلة من الرسوم المفروضة على البضائع الهندية المستوردة الى ممتلكات عامة تابعة للحكومة. وفي عام 1551 استكمل تحضير الدفتر العثماني الاول الذي سجلت فيه تفاصيل املاك الحاكم الخاصة والمقاطعات ونظام لإقطاع في ولاية البصرة.

على الرغم من السيطرة العثمانية فان الاستقرار الاداري لم يتحقق دائما في البصرة وارجائها بل اصبحت مسرحا للاضطرابات او سيطرة العشائر العربية عليها، فسرعان ما ثارت القبائل العربية بزعامه علي ال عليان كبير مشايخ الجزائر عام 1549، فكلف السلطان والي بغداد تمرد علي باشا لإخماد الثورة، واصدر اوامره الى والي سيواس محمد باشا بالاطه جي للتقدم على رأس قوة من الانكشارية للمساعدة في انهاء الثورة. وقد تقدمت القوات العثمانية الى واسط ومنها توجهت الى المدينة وتقع بالقرب من القرنة مركز ال

عليان. وبعد معارك شديدة بين رجال القبائل والقوات المهاجمة، فشل العثمانيون في تحقيق نتيجة حاسمة، وبسبب طبيعة المنطقة غير المواتية للحروب النظامية، وامام شدة المقاومة، وجد القائد العثماني تمرد علي باشا نفسه مجبرا على الانسحاب، وقد كلفه فشله منصبه، اذ صدر الامر بعزله وتعيين محمد البالطه جي باشا لمنصب والي بغداد. ولكن الدولة العثمانية، نظرا لأهمية جنوب العراق لاسيما البصرة من الناحيتين الاستراتيجية والتجارية، وخوفا من استغلال البرتغاليين وحلفائهم الصفويين المتربصين عند مداخل الخليج، استمرت في سياستها الهادفة الى اخضاع القبائل واتباع سياسة قمعية شديدة. لكن كان لفشل الاسطول العثماني في صراعه مع البرتغاليين بين عامي (1551-1553) اثر في اضعاف هبة العثمانيين في المنطقة، فاستغلت القبائل العربية ذلك لمعاودة الثورة على العثمانيين، واستطاع ال عليان في عام 1553 من صد حملة عثمانية ارسلت لقمع ثورتهم. وتزايدت على اثر ذلك جرأة القبائل واخذت تهاجم الحامية العثمانية في البصرة بشكل متواصل. وقد اشتدت ثورة ال عليان خطورة في عام 1566-1567، فنظمت حملة كبرى اشتركت فيها حاميتا شهرزور والموصل، كما ارسلت 450 سفينة مزودة بـ 200 مدفع عن طريق بيرة جك عبر الفرات، وانيطت قيادة الحملة بوالي بغداد اسكندر باشا. وقد استطاع العثمانيون تحقيق بعض النجاح، ولكن رجال القبائل واصلوا المقاومة بأسلوب حرب العصابات، وكبدوا القوات العثمانية خسائر كبيرة. فلم يكن من اسكندر باشا الا ان يواصل ضغطه العسكري، ولكنه فشل في احراز نصر حاسم على رجال القبائل، فامر بقطع اشجار النخيل واتلاف المحاصيل التي تعيش عليها القبائل، مما اضطر ال عليان الى طلب الصلح لقاء دفع ضريبة الى خزينة البصرة، وتسليم احد اولاده رهينة لدى السلطان.

2. خضوع المنطقة الشمالية الشرقية الى الحكم العثماني:

كانت المناطق الشمالية والشمالية الشرقية من العراق فقد خضعت للحكم العثماني باستثناء منطقة شهرزور الواقعة في الشمال الشرقي منه. ومن المعروف ان قلاع الحلة وشهران

ولورستان وواسط ومشعشة والقطيف الحقت بالدولة العثمانية في الوقت الذي كان السلطان سليمان القانوني ما يزال في بغداد، اي ان الحاق هذه المناطق تبع احتلال بغداد مباشرة . اما منطقة شهرزور الواقعة في المنطقة الشمالية الشرقية من العراق فقد كان يسكنها الاكراد على شكل عشائر. وقبيل الحكم العثماني خضعت المنطقة الى الصفويين الذين اقروا امرائها المحليين في ادارة المنطقة. والمعروف ان انضواء منطقة شهرزور تحت الحكم العثماني تحقق خلال حملة ابراهيم باشا التي كانت مقدمة لحملة القانوني وخلال هذه الحملة وكذلك بعدها قامت القوات العثمانية بفتح الكثير من القلاع الواقعة على الطريق وسيطرت على حوالي خمسة وعشرين قلعة في منطقة شهرزور وحدها وذلك حوالي اواخر سنة 1534 وبداية سنة 1535، وبعد مغادرة القانوني بغداد بعد احتلالها متوجهاً نحو اذربيجان سيطرت القوات العثمانية التي كانت تتقدم في منطقة شهرزور على قلاع كثيرة فيها، كما اعلن بعض رؤساء العشائر المشهورة في المنطقة ولائها للدولة العثمانية. غير ان التحكم العثماني في المنطقة كان مرهوناً بالوجود الفعلي للقوات العثمانية في المنطقة ولهذا اصبحت هذه المنطقة مسرحاً للنزاع العثماني-الصفوي، ولم يكن للزعماء المحليين الا الخضوع لأحد الطرفين المتخاصمين. ويبدو ان قلعة ظالم مقر ولاية شهرزور كانت اهم القلاع في المنطقة قاطبة.

- البصرة قاعدة بحرية للصراع العثماني-البرتغالي:

شهد العراق في العهد العثماني صلات كبيرة ربطت ما بينه وبين اقطار الخليج العربي الاخرى، وكانت هذه الصلات تتفاوت مداً وجزراً وتختلف من وقت الاخر. وكان لظهور الخطر البرتغالي اثر كبير في توجه العثمانيون نحو البصرة ثم الخليج العربي.

بدأ الاهتمام البرتغالي بالبصرة منذ نهاية العقد الثاني من القرن السادس عشر، وقد جاءت اول حملة برتغالية في عام 1529 عندما استعان راشد بن مغامس امير البصرة

بالبرتغاليين ضد خصمه امير الحويزة فبعث نائب الملك البرتغالي في الهند حملة بقيادة تافرز دي سوزا، غير ان خلافا دب بين القائد البرتغالي وامير البصرة فقام بتدمير بعض القرى التابعة للبصرة ثم عاد ادراجه الى هرمز. وقد كان سبب الخلاف هو رفض راشد بن مغاسم مساومة البرتغاليين له حول بعض شروط التجارة

لقد اتخذ العثمانيون من البصرة نقطة انطلاق لهم نحو التقدم في مياه الخليج العربي لضم اقطاره الواحدة تلو الاخرى الى إمبراطوريتهم الشاسعة، وكانوا بهذا يصارعون الزحف الاوروبي من جهة والامبراطورية الفارسية من جهة اخرى. لقد كانت تلك المحاولات في البداية بطيئة وضعيفة ذلك لان العثمانيين عجزوا عن تثبيت نفوذهم في البصرة نفسها وما حولها، فبقي ال عليان حكام المدينة في حالة تمرد مستمر، وقد فشل الاسطول العثماني عام 1553 من احتلال حصونهم، ولاقى العثمانيون فشلا مماثلا في الحويزة، وبقيت عشائر المتنفك مصدر ازعاج مستمر للولاة. اما الحالة في البصرة نفسها فهي لا تختلف عما كان يجري من حولها، فمرة كانت تتعرض لغزو ايراني، ومرة تنفصل عن بغداد وهكذا. وكان من العسير على ولاة بغداد ان ينقذوها من متاعبها، وان الاسطول الذي انشاه العثمانيون فيها كان ضعيفا مهلهلا ومفككا، لذا فانه لم يوفق في احراز أي نصر يذكر. وفشلت جميع المحاولات التي بذلت للسيطرة على بعض اجزاء الخليج العربي، ذلك انها جوبهت بمقاومة اوربية شديدة: برتغالية- هولندية- انكليزية من جهة، ومقاومة فارسية على ضفة شط العرب اليسرى من جهة ثانية، وبمجابهة العصبيات المحلية من جهة ثالثة. وكانت القوات البحرية العثمانية في كل هذا بعيدة عن مراكز تموينها في البحر المتوسط، قبل فتح قناة السويس. ومع هذا فإن العثمانيين بذلوا مساعي كبيرة من اجل جعل البصرة قاعدة لعملياتهم البحرية في الخليج العربي ضد البرتغاليين. واولى تلك المحاولات كانت عام 1552 اذ جعلها بيرى بك ريس نقطة تجمع لأسطوله، بعد فشله في الاستيلاء على هرمز. وقد بقي قسما من اسطوله في البصرة وعاد الى السويس بالقسم الباقي. وتكررت المحاولة عام 1554 اذ قاد حاكم القطيف وهو مراد بك ريس اسطول البصرة متوغلا في الخليج العربي، ولكنه عاد من

حيث انطلق بعد فترة قصيرة. على ان ما اصاب الاسطول العثماني بعدئذ على يد سيدي علي ريس عام 1554 كان ضربة قوية وجهت الى الاسطول العثماني في البصرة جعلته لا يستطيع ان يفيق منها فترة طويلة. فقد بدأ قائد الاسطول مغامرته قاصدا القطيف، وليتبع خطوات الاسطول البرتغالي الذي فاجأه عندما اتجه جنوبا مجتازا هرمز، وكانت خسارة كبيرة لا تعوض للعثمانيين عندما اضطر سيدي علي الى بيع قطعات اسطوله التي نجا بها بعد ان قذفته الامواج الى الساحل الهندي. وقد فشل العثمانيون في اخراج البرتغاليين من الخليج العربي، وحتى عندما ضعف الاخيريين عند انضمام بلادهم عام 1580 الى اسبانيا، كان العثمانيون بدورهم قد وهنوا وبرزت قوتان جديدتان هما هولندا وبريطانيا. ولم يلاحظ على العثمانيين انهم قاموا بأي نشاط يذكر في الخليج العربي باستثناء محاولتهم في احتلال البحرين عام 1559. وكانت حصيلة العثمانيين هو احتلالهم بمساعدة قبائل المتفك مقاطعة الاحساء، الا ان هذا الاحتلال لم يتم عن طريق البحر، وانما حققه جيش من المشاة عن طريق البر عام 1592 بقيادة فتحي باشا.

الماصرة الخامسة / - الادارة العثمانية في العراق:

1. التقسيمات الادارية :

بادرت الدولة العثمانية على اثر الاستيلاء على بغداد في 1534م، والحاق البصرة على نحو مباشر بالدولة في 1546، الى وضع تقسيم اداري منظم للعراق لكونه احد اهم ولاياتها من ناحية ولأنها لم تجد تقسيما اداريا واضحا له، من ناحية اخرى، وقد روعيت في التقسيم الاوضاع الخاصة بالبلاد، ولا سيما ما يتعلق بالعشائر العربية والكردية التي تؤلف نسبة كبيرة من السكان. وقد طبق العثمانيون على العراق نظام الايالات المعمول به في بقية انحاء الامبراطورية. والايالة او الولاية هي اكبر وحدة ادارية وتقسّم الى وحدات ادارية اصغر تعرف

